جامعة المثنى / كلية التربية للعلوم الانسانية
مجلة اوروك للعلوم الانسانية
موقع المجلة : www.muthuruk.com
BM-Publisher

المكان فاعلا شعريـا عند يحيى السماوي

خالده علي فليح حسن الكعبي *
جامعة ذي قار / كلية التربية

معلومات المقالة

تاريخ المقالة:
الاستلام: 2019/4/23
تاريخ التعديل : 2019/5/22
قبول النشر: 2019 /6/16
متوفر على النت:2019/9/5

الكلمات المفتاحية :
المكان -فاعلية الشعر
المكان الاليف
المكان المستباح
المكان الحلم

الملخص

يشكل المكان في شعر يحيى السماوي عتبة ذات أهمية واسعة على مستوى الدلالة والبناء ، فلا يكاد شعره يخلو من الإشارة للمكان . والمتتبع للمكان في شعر السماوي يجده يتحرك بشكل موازٍ لمراحل حياته من الطفولة والشباب ثم الكبر. فضلا عن ذلك تتعدد الأمكنة في شعره فمنها المكان الأليف فالمكان غير الأليف ثم المكان الحلم . والمكان عند السماوي سواء أكان واقعيا أو متخيلا يظل معبرا من خلال الجملة الشعرية عن هواجسه الاجتماعية والنفسية ، وبذلك صارت عتبة المكان فاعلا شعريا في توجيه النص الشعري وبنائه

© جميع الحقوق محفوظة لدى جامعة المثنى 2019

المقدمة

يتناول البحث تبيان العلاقة بين شعر الشاعر العراقي يحيى السماوي وبين أثر المكان في توجيه النص الشعري ثم البحث في تجليات المكان من خلال النص الشعري فثمة ارتباط وثيق بين الشعر والمكان ، لأن العلاقة بينهما هي علاقة جدلية إذ يصعب الفصل بينهما ، فالعلاقة بين الشعر والمكان ليست وليدة العصر الحديث بل هي قائمة منذ العصر الجاهلي فقليلا ما تخلو القصيدة الجاهلية من المكان أو من أثره فيها ، ولعلَّ الطلل في القصيدة الجاهلية هو من أبرز معطيات المكان فيها وهو يعكس ارتباط الشاعر بوصفه أنسانا ـــ بذلك المكان لأنه ارتباط وجداني ونفسي واجتماعي .

هذا البحث هو محاولة عن فاعلية المكان في توجيه النص عند الشاعر العراقي يحيي السماوي وذلك من خلال النصوص الشعرية التي يمكن من خلالها رصد

*الناشر الرئيسي : E-mail : drhassan9272@gmail.com

معاناة الشاعر وهمومه . وتعددت أوصاف المكان في شعر السماوي فهناك المكان (الوطن / الحلم) الذي طالما حلم الشعراء به لا سيما حين يتعرضون إلى نكبة الغربة أو الاغتراب ثم المكان الذي طالما يعاني الشاعر منه ، ونقصد به (المكان / المنفى) ، وهو المكان البديل الذي اختاره الشاعر مرغما بسبب مواقفه السياسية . أمَّا المكان الذي يمكن أن نسميه بالحلم المستباح فهو يشغل مساحة واسعة في ذاكرة الشاعر، بمعنى أنَّ الوطن بوصفه مكانا واقعيا أو مكانا يحلم الشاعر أن يعود إليه بعد سنوات الغربة في بلاد الغرب .

والمكان عند السماوي هو مكان متخيل أو مكان واقعي ليكون بعد ذلك مكانا أليفا أو مكانا معاديا استعمله للتعبير عن مواقفه السياسية والاجتماعية والنفسية وبذلك أصبح المكان فاعلا شعريا في توجيه النص عند ه .

والبحث هذا هو محاولة لاستجلاء الأثر الجمالي للمكان في شعر السماوي وبيان ما يتركه من .

ولا أدعي أن هذا الموضوع لم يتناوله الباحثون في دراساتهم لكنه لم يُدرس بشكل مفصل ، وأعتقد ـ أنَّه من خلال متابعتي له ـ بحاجة إلى دراسة جادة من قبل الباحثين وذلك لكثرة أشعار السماوي التي تحدث فيها عن المكان . وعسى أن يكون هذا البحث مدخلا أو خطوة لدراسة أوسع عن أثر المكان في شعر السماوي إنْ شاء الله تعالى .

مدخل :

الشاعر:

يحيى السماوي ، شاعر من العراق ، من مواليد مدينة السماوة الواقعة جنوبي العراق ، من اسرة عراقية متواضعة في العيش والتعلم والثقافة ، كان طموحا منذ صباه ، اطلع على المنجز الشعري العربي ، لاسيما دواوين كبار الشعراء العرب من أمثال : طرفة بن العبد ، وأبي العلاء المعري ، وأبي الطيب المتنبي ، وقرأ كتب التراث العربي القديم مثل : ألف ليلة وليلة ، وكتاب المستطرف ، والعقد الفريد ، أما الشعر المعاصر فقد كان له نصيب من اطلاعه على الشعر والثقافة الشعرية ، ومن هؤلاء الشعراء الذين تأثر بهم هم : الجواهري ، والسياب ، والرصافي "1" .

وهذا يعني أنه تأثر بأساليب هؤلاء الشعراء ، وطرائقهم الفنية ، مما أسهم في بناء ذائقته الفنية ، وتطوير معجمه الشعري ، هذا في شبابه الشعري أما في طفولته فقد كان مولعا بالشعر، إذ يروي دارسوه أنَّ أولى قصائده هي قصيدة " ذكرى " التي ألقاها وهو طالب في المرحلة المتوسطة في مهرجان مدرسي بمدينته " السماوة " ثم نشرها في مجلة مدرسته ، وذلك في عام 1968 "2" .

في عام 1970 صدرت له مجموعة شعرية بعنوان " عيناك دنيا " ، ثم مجموعة أخرى بعنوان : " زمن السبي والبكاء " "3" .

أكمل دراسته الأولية في كلية الآداب ، الجامعة المستنصرية في قسم اللغة العربية مما يسر له صقل لغته العربية وموهبته الفنية .

نشاطه الأدبي :

يُعد الشاعر يحيى السماوي من الرعيل الأول، فهو يشابه البياتي في شعر التفعيلة ، ويماثل الجواهري في قصيدة العمود ، الأمر الذي جعله يجمع بين أسلوبين شعريين لهذين الشاعرين الكبيرين "4" ، فهو ـ إذن ـ ينتمي لهاتين المدرستين الشعريتين.

نُشرت قصائده في مجلات عربية وأجنبية ، شارك في المهرجانات الأدبية والشعرية العربية والعالمية ثم كُتبت

DOI:10.18018/URUK/019-12/1745-1760

عنـه الدراسـات والمؤلفـات النقديـة والأكاديميـة وصـدرت لـه أربـع وعشـرون مجموعـة شـعرية طـوال خمسـين عامـا مـن عمره من عام 1970 وحتى عام 2018.

المكان فاعلا شعريا " * " :

في حيـاة السـماوي وشـعره أمكنـة ، لا مكـان واحـد غيـر أنَّ المكـان الـذي ظـل يلاحـق ذاكرتـه الشـعرية هـو موطنـه الكبير(العـراق) ، ثـم مـوطن الطفولـة والشـباب ، مدينتـه (السـماوة) ، فقـد أحـب الشـاعر مدينتـه ، " فهي تمثـل للشـاعر مسـرح طفولتـه وصـباه وصـدر شـبابه ، وانتعـاش صورتها في قلبه وذاكرته " " 6 " .

ويصـفها بقولـه : " كانـتْ مدينـة السـماوة المكـان الـذي حفـرت تفاصـيله في الـذاكرة وبخاصـة (حـي الغربـي) ، بأزقتـه الترابيـة الضـيقة ، وبيوتـه المتلاصـقة تلاصـق قطيـع مـاعز في طريـق ضـيق ،ولأني كنـت ابـن بقـال فقيـر ، فلـم يكـن بمقـدوري الحلـم بزيـارة بغـداد التي أسـمع كمـا لـو أنهـا في قارة أخرى " " 7 ".

ومـن هنـا كانـت مدينـة (السـماوة) الـذاكرة الأولـى في حياتـه المليئـة بالـذكريات ، لاسـيما ذكريـات الطفولـة والصـبا والشـباب ، أمـا بغـداد فكانـت المكـان (الحلـم) الـذي ظـل في شـبابه يحلـم أن يكـون موطنـا بـديلا للمكـان الأول ، وذلك لما فيها من بهجة وعنفوان وألق الحضارات .

تعـددت الأمـاكن في حيـاة السـماوي ، وتركـت أثـرا في حياتـه الاجتماعيـة والفنيـة ، ففـي عـام 1991 أصـبحت السـعودية موطنـا بـديلا للـوطن الأم (العـراق) ، حيـث فـرَّ مطـاردا وعـاش فيهـا سـت سـنوات يعـيش على المسـتوين الاجتمـاعي والثقـافي حيـاة جديـدة في هـذا المكـان غير الأليـف ، كونـه لجـأ اليـه مضـطرا لا مختـارا خوفـا مـن السـلطة الحاكمـة في العـراق آنـذاك . في عـام 1997 م هـاجر يحيى السـماوي إلى اسـتراليا ليقـيم فيهـا ، ويمـارس مـن هنـاك نشـاطه الشـعري . أمـا العـراق فلـم يعـد مكانـا واقعيـا بالنسبة له ، إذ صارا مكانا في الذاكرة فقط .

تختلـف خصوصـية المكـان مـن شـاعر إلى آخـر، فقـد يكـون المكـان أليفـا محبوبـا أو يكـون معاديـا لـيس فيـه سـوى الألـم والشـجن ، وقـد يكـون ذكـرى طوتهـا الأيـام لا يمكـن العـودة لهـا ، ومهمـا يكـن مـن ذلـك فـإنَّ مهمـة الشـاعر في تجربتـه المكانيـة هي " أنْ يجـد إضـافات جماليـة تظـل غائبـة عـن بصـيرة الجمهـور ، والمسـاحة النفسـية للمكـان تنبثـق مـن اسـتجابة الخيـال الممتـزج بالعطـاء والعاطفـة تجـاه المكـان المـدرك، وكلمـا تـزداد قيمـة المكـان تتنـامى معهـا مسـاحته النفسـية ، والإثـرة في المكـان تمثـل قيمـة نفسـية تتمركـز في تشـبث الـذات بـه ، والبقـاء ضـمن أبعـاده الآسـرة ، والتلـذذ بهباتـه النفسـية التي تفـرض نفوذهـا على الـذات الرائيـة بيسـر واقتـدار ، فالشـاعر يتسـامى بمكانـه البسـيط الأليف إلى صورة كونية " " 8 " .

إنَّ مـا يـميز المكـان في شـعر يحيى السـماوي هـو توظيفـه توظيفـا شـعريا فمـنح الـنص شـعرية خاصـة بمعنى أنَّ المكـان صـار عنـده " يقـع بـين زاويتـين همـا : زاويـة التشـكيل الشـعري وزاويـة التأويـل وفقـا لرؤيـة شـعرية غالبـا مـا يـتحكم فيهـا الخيـال ليمنحهـا بعـدا تأثيريـا جماليـا ، وفي ضـمن الزاويـة الثانيـة يكـون لأحاسـيس المتلقـي ورؤيتـه الذوقيـة وأسسـه النقديـة أثـر في صـياغة تجربـة الشـاعر ، و بهـذا يكـون المكـان منفتحـا على عـالم التخيـل عنـد المتلقـي " "9 ".

مـن هنـا فـإن المكـان هـو المـدخل الأكثـر قربـا الـذي يؤسـس عليـه المبـدع رؤيتـه الفنيـة بطابعهـا الإنسـاني ، فمنـه تنبثـق الرؤيـة وتتنـامى لتشـكل مشـهدا حيـا في كثيـر من الأحيـان ، ولـك حـين يعمـد المبـدع الى دمجـه بعالمـه المتخيـل ينتج للمتلقي صورة حميمة بين الذات والمكان " 10 " .

DOI:10.18018/URUK/019-12/1745-1760

والمكـان علـى رأي بعـض الأعـراب هـو يماثـل القمـيص بجـامع صـفة الاشـتمال بينهمـا، فهـو كـالقميص إن شـاء صـاحبه وسـعه وإن شـاء ضيـقه ، فـالمنزل الـذي يريـده الأعرابـي يشـتمل على خصوصـية القمـيص ، بـل يتجـاوزه ليمتـد إلى الجسـد كلـه تجعـل راحتـه لا تقـف عنـد حـدود أعضائه ، وإنما تمتد لتشمل المكان بأسره " 11 " .

ومـن هنـا فـإنَّ المكان يحتـل مكانـة بـارزة في العمـل الأدبي ، فمـن النـادر جـدا أنْ يخلـو نـص أدبي مـن المكـان ، ويكـاد الـنص الأدبي أنْ يفقـد خصوصـيته بفقـده للمكـان ، بمعنى أنَّ العمـل الأدبـي عمومـا والشـعر على وجـه الخصـوص سـوف يفقـد خصوصـيته ثـم أصـالته وذلـك حـين يفقـد مكانيته "12 " .

لـذا حـدد الناقـد العراقي ياسـين النصـير ثلاثـة مسـارات للأديـب يجـب عليـه أنْ يراعيهـا حـين يجئ بالمكـان في العمـل الأدبـي ، وهـي أن يصـبح مكـان القصـة أو القصـيدة هويـة تاريخيـة ووطنيـة ، وأن يحمـل طموحـات الأديـب الثقافيـة ، بـأن يجعلـه أمـام امتحـان ثقـافي مـع العصـر ، وأنْ يتحـول ـ لـدى الأديـب ـ الفعـل في المكـان فعـلا في البحـث عـن الشخصية المستقبلية والمتطلعة إلى الواقع " 13"

ونظـرا لأهميـة المكـان في الـنص الأدبـي ؛ فإنـه يثيـر لـدى المتلقـي احساسـا (مـا) بالمواطنـة ، أو احساسـا بـالزمن ، والمخيلـة لهـا أثـر واضـح في صـنع فاعليـة الشـعر إذ لا يمكـن أنْ يحدث شيء في العملية الشعرية بدونها " 14" .

وفضـلا عمـا تقـدم ، فـإنَّ للمكـان أهميـة بوصـفه ملموسـا ؛ إذ باسـتطاعة الأديـب أنْ يـوظفه تجسـيدا الأفكـار والرمـوز والحقـائق المجـردة ، وبالتـالي تقريبهـا مـن الواقع "15 "

وخلاصـة القـول : إنَّ المكـان يأخـذ في الشـعر العربـي أبعـادا مختلفـة زوايـا الرؤيـة التـي تعالجـه مـن جهـة ، وبحسـب الفهـم الـذي أنيـط بـه من جهـة ثانيـة ، فضـلا عـن المعـارف التي تؤثـث الدراسـة ، وكل مقاربـة مكانيـة مـن هـذه المنـازع سـوف تعطي للمكـان ثقلـه الفني في العمـل الشـعري شـكلا ومضـمونا ، الأمـر الـذي يجعـل المكـان يتجـاوز بعـده الجغرافـي إلـى ابعـاد أخـرى : ميتافيزيقيـة ، وجماليـة ، ونفسية سياسية و اجتماعية وغيرها . "16" .

المكان/ الوطن :

وممَّـا تقـدم نصـل إلـى أن أهميـة المكـان في الـنص الشـعري هـو ليس في ذاتـه بـل فيمـا يؤديـه مـن وظـائف على مسـتويات متعـددة مثـل : المسـتوى الجمـالي ، والمسـتوى الموضـوعي فضـلا عـن مسـتوى الحضـور والغيـاب ، وهـذه المسـتويات هي بمثابـة وظـائف يسـخرها الأديـب للوصـول إلى مبتغاه في العمل الفني .

والمكـان لا يبـدو مـؤثرا مـن دون أن يصـوغ الإنسـان مشـاعره مـن خلالـه حتـى تصـبح العلاقـة بينهمـا علاقـة جدلية بالمعنى التأثيري التام " 17 "

ولعـل أهـم مـا في المكان ـ سـواء أكان متخيلا أو واقعيـا ـ هـو أنْ يفجـر ذات الشـاعر يحيى السـماوي هـو الـوطن ، إذ يقـع الـوطن في شـعره موقعـا لا يمكـن الفصـل بينهمـا ، أي بـين انسـانية الشـاعر وبـين الـوطن على الـرغم مـن التشـرد والنفـي والضـياع الـذي لحـق بـه بسـبب مواقفـه السياسـية مـن السـلطة الحاكمـة ، إذ يتضـح أنَّ يحيى السـماوي هـو شـاعر لصـيق بالمكـان وابـن شـرعي لأحوالـه ، وهـو في ذلـك لا يسـتطيع أن يغيـب الإلحـاح المكـاني في عملـه " 18 " ، لـذا يقول : "19 "

وأنـا كمئذنـة " الجديـدة " مـا انحنـت يوما ، ولا تعبتْ من الإذكار

فـ(الجديدة)هي مسـقط رأسـه في السـماوة لـذا ظلـت حاضـرة في ذهنـه رغـم مـرور سـنين على غربتـه في المنفى، إذ يندمج بالمكـان ويلتصـق بـه فـلا يفارقـه وهـو مـازال يطـاول الـزمن لا ينحني يومـا أمـام تحـديات الحيـاة ومصـاعبها مثـل

DOI:10.18018/URUK/019-12/1745-1760

تلك المئذنة التي لم تنحن يوما ، ولم تتوقف عن الدعاء والأذان .

المكان في شعر السماوي هو حاجة فعلية لبث مشاعره من خلاله ، لا سيما ذلك المكان الذي تشكلت فيه ذكريات طفولته وشبابه و تتسع دائرة المكان عنده لتشمل الجمع بين وطنه الصغير ، بلدته (السماوة) بلدة الطفولة ـ ووطنه الكبير (العراق) في موقف شعري واحد ، وهو بذلك يبحث عن الوطن من خلال رموزه .

إنَّ للبعد المعرفي الذي يخلفه المكان أثرا في استنهاض الحنين كي يسترد الإنسان (الشاعر) ماضيه ، وبذلك يصبح المكان معادلا للزمان ، وحين يفلت منا المكان فإننا سوف نفقد معه الزمان "20" . وعلى رأي " باشلار " الذي يرى إننا نعرف أنفسنا من خلال الزمن " 21 ".

إن الوطن في شعر السماوي يشكل فاعلا شعريا بمفرداته ذات الدلالة المكانية ، وما يتفرع عنها أو يتصل بها من المحاور المعجمية ، وهو أكثرها هيمنة على سائر المحاور الأخرى وأشدها تأثيرا عليها " 22 " .

يقول السماوي "23":

السماوةُ دميتي في حجرة الكون

وفراشي في حديقة العالم

أعرفُ الصيفَ في مدينتي

من الندى الناضح من ريحان جيدها

وأعرفُ الشتاءَ من وشاحها المخمل

والربيعَ من سِرب الفراشات التي تحوم حول ثغرها المخضل بالرحيق

وأعرفُ الخريفَ من انحسار الورد في فستانها الشفيف

يقول أيضا (24) : حظيَ كدجلةَ والفراتِ ، نداهما دمعٌ ولحنهما صراخٌ حذارِ

وكحظِ بستان السماوة ، نخله كرَبٌ وسعفٌ دونما أثمار

وكخبزِهما : بدمٍ يُداف طحينُه فرط الأسى ، وكأهلها الأبرار

وتعددتْ يا هندُ في وطن الهوى سبُلُ الرَّدى بتعدد التُجار

وطنٌ على سعة السماء رغيفُه لكنَّه حِكرٌ على الأشرار

الوطن بالنسبة للسماوي سواء أكان أكبر بحجم "العراق "أو أصغر بحجم "السماوة" يظل بالنسبة له جنة وجحيما في آن واحد ، فالجنة تبدأ من الوطن ، والجحيم يبدأ من نفي المواطن عن الوطن ، والعراق هو السماء الثامنة ، وأما السماوة فهي السماء التاسعة بالنسبة له.

إنَّ هذا الوطن الذي خرج معافى من تحت رماد حرائق هولاكو وتيمور لنك سيخرج من بئر جراحاته الراهنة معافى أيضا ، العراق هو طائر الفينيق العصي على الفناء ، والسماوي يهرب من الوطن ثم يرجع إليه لاجئا طالبا الأمان فيه ، يهرب من جحيمه إلى جنته ، وهو يبحث في العراق عن العراق نفسه ، وإذا لم يستطع العودة للوطن العراق في حياته ، فسوف يعود إليه محمولا داخل صندوق خشبي ليندثر في ترابه " 25 " .

في القصيدتين آنفتي الذكر يتجلى مكان الطفولة من خلال البعد النفسي والشعوري عند الشاعر لأنَّ حديثه عن (الدُمية) في القصيدة آنفة الذكر ما هو إلا مرتكز للبعد النفسي العميق وما يحتويه من صور تعود لمراحل عمرية متعددة تبدأ من الطفولة وتنتهي بالشباب ثم الكهولة، فالمكان . إذن يحتوي الزمن

يصور الشاعر ذكرياته بصورة استرجاعية عبر تداعي الذكريات للمكان (الوطن ـ الأليف) الذي حاول

DOI:10.18018/URUK/019-12/1745-1760

خصـوم الشـعر أن يحولـوه إلى مكـان معـاد غيـر مـألوف فاسـتعاض عنـه بمكـان جديـد هـو(المنفى) ، فعلى الـرغم مـن الأسـى والمـرارة التي تُـداف في فـم الشـاعر ونفسـه مـن تعـدد سـبل الـردى في وطنـه ، وذلـك بمهـارة الجلاديـن في الـوطن بتحويـل الـوطن إلى : دمـع ، وصـراخ ، ونخيـل مـن غير أثمـار ، وكثرة التجـار والأشـرار. كل ذلـك لـم يسـتطع أن يجعـل الشـاعر أنْ ينسـى أو يتناسـى ـ وهـو مغتـرب ـ عـالم الطفولة في مدينة السماوة .

مـن هنـا فـإنَّ الشـاعر لـم يعـد تعبيره عـن المكـان هـو مجـرد تمثيـل تُسـلب منـه خاصـية الموضـوع ، بـل هـو يتعامـل معـه تعـاملا شـعوريا "26" ، فهـو أي المكـان لـم يكـن شـيئا محايـدا بـل صـار شـعورا يقـيم في أعمـاق الـذات الشـعرية ، فهـو لـم يعـد مكانـا محـددا ببعـد خـارجي كـأن يكـون منـازل أو سـجونا أو أحيـاء ، إنـه مكـان يمتلـك خاصـية الاشـتمال " 27 ".

إنَّ جماليـة المكـان أو فاعليتـه في الـنص الشـعري تـتم في اتسـاع الدلالـة الجماليـة للمكـان ، أو في تنويـع الصـور الشـعرية المكانيـة ، ويشـارك في ذلـك المعطى التخييلي الـذي هدفـة أو غايتـه الجمـال ، بمعنى أن الدلالـة الجماليـة في العمـل الأدبـي تـتم بفضـل تولـد طاقـات تخييليـة جماليـة متجانسـة تتـوالى عبـر الهيكـل المـادي للـنص ، ومشـاركة المتلقـي للمؤلـف في اسـتعداد التواصـل النفسـي عبـر العمليات الفنية " 28 " .

ومـن ذلـك قـول السـماوي في التعبير عـن أسـفه الشـديد أن يختار المنفى بعيدا عن الوطن :

لماذا تركتُ السماوةَ خلفي ؟

ويممتُ نحو المقادير خطوي ، فكنتُ الشقيا

أمـا كان ليْ

أنْ أختبئني ليلة في "الصريفة "

أو ليلتين بسرداب قبـرٍ

وعاما في البرية

نصفَ عقدٍ في هور الجبايش

عقدا مع اللوز والجوز في غابة

في الشَّمال

وعاما بكهفِ أُ لملمُ بعضي إليَّا "29 ".

وفي الـنص السـابق يندمج المكـان بالشـاعر الإنسـان ، فـلا يكـاد يغـادر أحـدهما الآخـر ، فالمكـان " الـوطن " يتسـع عبر حـدوده المكانيـة " الجغرافيـة " ليأخـذ الشـاعر فيـه بعـدا وجـدانيا وإنسـانيا عبـر ذلـك الاسـتفهام الإنكـاري الـذي يخرج لمعنى التحسر والتوجع.

فالأمكنـة ليسـت بـذاتها هـي رقعـة جغرافيـة مجـردة في حـدودها لكـن هـي عنوانـات تختـزل مشـاهد تـاريخ الشـاعر المتشـكل في الغربـة واصـطراع الهمـوم بداخلـه "30 ". ولا يخفـى معانـاة (السـماوي) في الغربـة إذا لـم يجـد بـديلا للمكـان / للـوطن " العـراق" الـذي لا عـوض لـه في غربتـه على الـرغم مـن تـوافر كل مستلزمات الحياة في بـلاد الغربـة ، فـالاغتراب يلاحقـه هنـاك ، وبـذلك يمكـن القـول : إنَّ السـماوة قـد شـكلت عالمـا خاصـا بـه لا يمكـن فصـله عـن ذات الشـاعر ، ومـن خـلال هـذه المدينـة ينفـتح الشـاعر على بـاقي وطنـه الكبير بـأهواره وجبالـه وأريافـه وغاباتـه وصحاريه على نحـو مـا جـاء في قصـيدته السـابقة و حتى القبـور والسـراديب تسـتهويه للإقامـة مادامـت هي (السـماوة) تعـيش في أحضـان الـوطن ، فثمـة ارتيـاح يثيره الـوطن في نفسـه المنكسـرة بسـبب الغربـة في بـلاد الغـرب التي هـاجر إليهـا مضـطرا لا مختـارا فضـلا عـن وجـود صـراع بـين مكـانين ، الأول : المكـان المـؤنس وهـو الـوطن ، والثـاني المكـان اللامـؤنس وهـو بـلاد الغربـة ولا سـيما حـين يكـون بـين الـوطن والمـرأة تماثـل أي أنَّ التمـاهي سـيكون بـين المكـان والمحبـوب ، ومـن ذلـك قصـيدته (تمـاهي) ، إذ يقـول " 31 " :

DOI:10.18018/URUK/019-12/1745-1760

بينك والعراق تماثلٌ
كلاكما يسكنُ قلبي نسغ احتراق
كلاكما أعلنَ عُصيانا
على نوافذ الأحداق.
وها أنا بينكما
قصيدة شهيدة
وجثة ألقى بها العشقُ
إلى مقبرة الأوراقْ
بينك وبين الفرات آصرةٌ
كلاكما يسيل من عينيَ
حين يطفح الوجدُ
وحين تشتكي حمامةُ الدوح
من الهجير في الفلاة

تبدو فاعلية المكان في شعر يحيى السماوي واضحة من خلال التماهي الذي يقيمه الشاعر بين المكان " الوطن " و " الحبيبة "على امتداد مساحة القصيدة ، وهو تماه يكون أولا على المستوى المكاني فيبتدئ بقلبه الذي امتلأ حبا لا يوازيه حبٌ آخر ، الأمر الذي وفر للشاعر أن يجسد الوطن في امرأة أو يجسد المرأة في وطن، ثم يعلن حالة العصيان والتمرد من قبل المرأة والوطن معا من مقر إقامتهما في قلب الشاعر" 32 " . وتنبثق جمالية المكان في الشعر من كون الوعي الشعري في ذاته وعيا جماليا يقوم على تشكيل الإدراك الحسي للواقع ، وتحويله إلى رؤية تستخلص ما هو جوهري فيه ، لأنَّ الشعر بوصفه فناء ما هو إلا تأويل للواقع ، وفي هذا الواقع يشغل المكان أثرا مباشرا في تشكيله وبذلك تتم فاعلية المكان في تشكيل النص الشعري وبنائه " 33 " .

يرى الناقد العراقي ياسين النصير" 34" ، أن الحقيقة الجمالية للمكان بوصفه فاعلا في القصيدة الحديثة هي تقديم الصورة الشعرية بطريقة مختلفة عن الطريقة التي تقدمها أية جمالية أخرى فالمكانية تخلق جماليتها في القصيدة من خلال التفاعل بينها وبين فلسفة العصر. وسواء أكان للمكان أثر إيجابي أو سلبي في نفس الشاعر؛ فإنه يُضفي على فنية القصيدة جمالية خاصة بها ، وذلك من خلال الجمع بين ثنائيتي الألفة والعداء على مستوى المكان الواحد ، ومثل هذه الثنائية المكانية تحتل مساحة واسعة من شعر السماوي ، وفي ذلك يقول " 35 " :

أنا في "السماوة " لن أُكذِب مُقلتي
فالنهرُ و"الجسَرُ الحديد" هُداتي
هذا هو "السجن القديم " ، وخلفه
وجه "الرُميثة "ساح إعدامات
وهناك "بيت أبي " ... ولكن لم يَعُد
لأبي به ظِلٌ على الشرُفات
لا يُخطئُ القلبُ الترابَ ، شممتُهُ
فتعطرتْ بطيوبه نبضاتي
وهناك بستان " الإمامي " الذي
عشقتْ نعومةَ طينه خطواتي
النخـــــلُ نفـــــسُ النخـــــل .... إلا أنَّـــــه
مستوحشُ الاعذاق والسَّعفات

والمكان حين يكون ايجابيا بالنسبة للشاعر سيكون بالطبع مكانا أليفا لا يثير عنده مشاعر الغضب أو مشاعر الحزن أو أية مشاعر سلبية أخرى تجاهه ، بل يترك أثرا محمودا في ذاته منذ الطفولة حتى مرحلة الشباب من عمره . ومثل هذا المكان يكون مكانا للمعيشة المقترنة بالدفء ، وفيه يشعر صاحبه بأنَّ ثمة حماية لهذا المكان من الخارج المعادي وتهديداته ، ويمنحُه فسحةً للتذكر والحلم "36 " ، وفي المكان الأليف تبدأ حياة الشاعر من جديد ويتناسى ما ضاع من سنوات عمره في المهجر ، ومن

DOI:10.18018/URUK/019-12/1745-1760

ذلـك قولـه في زيـارة مسـقط رأسـه " السـماوة " بعـد غيـاب دام عِقدين من الزمن :

ألقيتُ بين أحبتي مرساتي

فالآن تبدأ . يا حياةُ . حياتي

أنا في السماوة لا أشك بما أرى

فلقد رأيتُ بأهلها قسماتي" 37"

" حيـــاةُ "، هـــذه هـــي زوجـــة الشـــاعر ارتبطـــت بالمكـــان ارتباطـا لا انفصـام لـه ، فهـي تتوحـد مـع المكـان ، مكـان الطفولـة والصـبا والـذكريات ، فـلا مكـان مـن دون المـرأة ، ولا مـرأة مـن دون المكـان .والشـاعر ينفـتح على المكـان مـن خـــلال زوجتـــه (حيـــاة) ، فهـــي بمثابـــة انبعـــاث لحياتـــه الجديـدة ، وكـل مـا عـداها هـو مـوت بالنسـبة لـه وتـرتبط أهميـة (حيـاة) بأهميـة السـماوة في حيـاة الشـاعر بعـد أنْ ألقـى مرسـاته بعـد طـول انتظـار فهـي أي (السـماوة) باختصـار الحقيقـة التي لا شـك فيهـا لأنهـا الأهـل الـذين يـرى حقيقته بهم .

إنني ألحظ تفاعلا نصيا بين الشاعر والمكان ممَّا يجعل النص ثريا بتقنيات فنية متعددة تجعله ـــ فيما بعد ـــ قادرا على التأثير والإدهاش ، فالشاعر يستعمل ـــ مثلا ـــ تقنية الاسترجاع ، والجمع بين ذكريات الماضي والحاضر ، والخروج من الخاص إلى العام ، فهو يتحدث عن خصوصياته ثم يجعل الحديث منفتحا على الوطن ، العراق ليجعل قضية العراق أشمل وأكبر من كل قضية ، تتلاشى أمامها كل الهموم والأحزان الشخصية ، الأمر الذي يجعل القارئ يخضع علاقة الشاعر بالمكان لعوامل اجتماعية ونفسية ووطنية ، لذا تتسع دائرة المكان عند السماوي لتصبح قضية عامة ، وذلك في قوله " 38 " :

متفائلٌ أنَّ الغد الآتي سيشهد

مَنْ يعيد الماءَ إلى الناعور

والناعورَ إلى البستان

والبستان للكف التي حرثت

وأنَّ حبيبتي بغداد

سوف تعود ثانية كما كانت تُسمى

في قواميس المدائن والهوى " دار السلام "

المكان مبعث للتفاؤل من وجهة نظر الشاعر يثير عنده الارتياح ، وكلما تعددت الأمكنة وتنوعت فإنها ترمز الى المكان الكبير الذي طالما كان الشاعر يحلم به ، فالبستان وبغداد ـ مثلا ـ كلها أمكنة منفتحة الدلالة ومعبرة عن معان أخرى ؛ فالناعور يرمز إلى المنطقة الغربية من العراق، والبستان يرمز إلى الجنوبية منه ، أما بغداد فهي ترمز الى البعد الإنساني والحضاري والإسلامي للعراق في عصوره الذهبية ، ولطالما عانت بغداد تاريخيا من أثر الغزاة . فهي ترمز للهوى والسلام معا . ولا مكان للغزاة فيها وإن وطأت اقدامهم أرضها .وهو بذلك الوصف يكشف عن صورة مبهجة لما ستؤول إليه بغداد بعد أنْ يتوقف الدمار وتنتهي الحرب ، وستعود بغداد إلى الحياة . ولعل في ذكره للناعور ما يدل على عودة الحياة من جديد بعد أنْ أوقفتها آلة الحروب حيث احياء البساتين . والفلاح الذي يعود لأرضه لحرثها من جديد بعد أنْ جعلتها الحروب بورا .

وألحظ ـ أيضا في أبيات الشاعر آنفة الذكر ـ اقتران المكان بالبعد الاجتماعي ، ويبدو ذلك واضحا لأنَّ الشاعر السماوي بوصفه شاعرا مُغتربا ، لم يكن شاعرا منعزلا عن الواقع، فقد استحضر واقعه المكاني من خلال ما يحمله ذلك الواقع من خصوصيات دالة ، ثم عكست موقفه من تلك الأمكنة في وطن بات حلما بالنسبة للشاعر ، فضلا عن ذلك صار الوطن ـ على الرغم من ابتعاده عنه وهجرته له ـ مكانا مثاليا ، فالعراق عموما والسماوة بوجه خاص هما مكانان مثاليان عند الشاعر يحيى السماوي ، ولا غرابة في ذلك .

DOI:10.18018/URUK/019-12/1745-1760

إن تشرف الشاعر بالانتساب للسماوة دليل على ذلك التعلق ببلدته الأم ، فهي عنده مثل بلدة (طيبة)عند عبد الرحمن منيف و قرية (جيكور) عند السياب وفلسطين لدى محمود درويش ، وغير ذلك من الأمكنة التي تمثل مكانا مثاليا بالنسبة للشعراء " 39 " وأرى ذلك واضحا في شعر يحيى السماوي الذي حمل الوطن على كتفه مهاجرا في الديار الغربية ، بعيدا عنه في المسافة لا في الوجدان ، حزينا على وطن جريح ، ففي ديوانه الموسوم : " بكاءً على كتف الوطن " أخذ الشاعر بنصح صديقه عبد العزيز التويجري الذي نصحه قائلا :أن يكون المرء عشبة في وطنه أثرى من أن يصبح غابة في منفى ما .... فاتخذْ من الفرات مدادا ، ومن السعفة قلما ، واصنعْ لوحك من طين العراق ، واعلمْ أنَّ أعذب الشعر أصدقُه لا أكذبُه كما يشاع في التراث الشعري العربي "40" .

فالوطن عند السماوي بسعة الكون لكن لا مكان فيه للأحرار بل أصبح وطنا حكرا على الأشرار ، إذ يقول" 41 " :

وتعددتْ يا هندُ في وطن الهوى
سبلُ الرَّدى بتعدد التجار
وطنٌ على سعة السماء رغيفُهُ
لكنَه حكرٌ على الأشرار
سوقٌ على مَنْ باع لا منْ يشتري
دفعُ النقودِ إلى الدخيل الشاري
ودعتُه ُ وأتيتُ خلفك لا ئذا
بِظلٍ لا بِتبر ذِمار

الوطن عند السماوي لم يعد مثاليا لا سيما على المستوى الواقعي، لكنه على مستوى الحلم يظل مثاليا على الرغم من كثرة الأشرار في وطن السماوي . ففي قصيدته (إنهم يقتلون النخل) ، يقول السماوي (42) :

هم يقتلون النخلَ
إنَّ النخلَ متهمٌ برفضِ الانحناء
وبالتشبثِ بالجذور ...
وباخضرار السَّعف
متهمٌ بإيواءِ العصافير التي
لا تُحسن استقبالَ
أعداءِ الطفولة والطواغيتَ الكبار
والنخلُ متهمٌ
بتأليب المياهِ على الطحالبِ
في بحيرات الدهاقنةِ الصِغار

في العراق تتعدد المعالم والرموز الحضارية أو الاجتماعية أو الدينية ، وتُعرف مدنه أحيانا بتلك المعالم ، ففي مدينة السماوة (بلدة الشاعر) مثلا تكثر المعالم والرموز الحضاري ، والنخل هو أحد تلك الرموز فباتت بعض مدن العراق تُعرف بمدن النخيل لكثرته فيها، وأخذ الشعراء يتغنون به ويكتبون القصائد الشعبية فيه ، ويبدو أنَّ الشاعر قد استثمر " النخل " في قصيدته ليرمز به للمكان أولا ثم إلى شموخ وطنه العراق ثانيا ، لأنه " النخل " رمز الثبات والإباء فهو يشبه العراق لا ينحني أمام العواصف الشديدة .

القصيدة تحمل من الدلالة ما يشير إلى فاعلية المكان وأثره في بناء النص ، والشاعر لم يشر لمكان بعينه صراحة بل أشار إلى رمزية ذلك المكان ، لأن النخل هو رمز للعراق (الوطن) ، بل يرمز إلى الإنسان في الوطن ، فأي محاولة لقتل النخل في وطن مثل العراق من قبل الغزاة هي بمثابة قتل للوطن .

تبدو المفارقة واضحة في إعطاء النص دفقا شعريا يسهم في بنائه على مستوى الفكرة والفن .وبذلك استطاع أن يسخر من

DOI:10.18018/URUK/019-12/1745-1760

أعـداء الـوطن بأسـلوب فني رفيـع ، فالأعـداء هـم أعـداء كل شـيء حتـى الطفولـة العصـافير لا تسـلم مـنهم . وبـذلك أسـتطاع أن يجـرد هـؤلاء الغـزاة مـن انسـانيتهم أولا ، ومـن واقعيـتهم ثانيـا ، لأنهـم حتمـا سيفشـلون أمـام شـموخ النخيـل في العـراق لأنـه لا يمكـن أن ينحني يومـا مهمـا بلغـت القسـوة عنـد الطغـاة والغـزاة . وبـذلك صـار الـوطن / المكـان مجسـدا في النخيـل ، وأضـحى المكـان أيضـا فـاعلا شـعريا على مستوى النص .

المكان / المنفى:

يمثـل المنفـى تحـولا في شـعر يحيى السـماوي وحياتـه ، فقـد شـغلت الحيـاة الجديـدة السـماوي بكـل مـا فيهـا مـن اضـطرابات نفسـية وقلـق وهمـوم وخـوف مـن المجهـول الـذي يلاحقـه طـوال سـنوات إقامتـه في المنفـى . وتوزعـت حياتـه في المنفـى علـى مـرحلتين : الأولـى : كـان فيهـا هاربـا مـن السـلطات في السـعودية في مخـيم اللاجئـين عـام 1990 ولمـدة سـت سـنوات والمرحلـة الثانيـة : في مسـتقره الأخير في اسـتراليا . ويبـدو أن السـماوي لـم يشـعر بالاطمئنـان إلا بعـد سـقوط النظـام في العـراق . لكـنَّ أثـر الاحـتلال الأمريكي للعـراق بعـد عـام 2003 م ظـل يلاحقـه بقـوة ، إذ يـرى وطنـه الـذي كان يحلـه فيـه محـتلا مـن جيـوش الغـزاة الـذين دمـروا كل شيء جميـل . ومـن هنـا شـكل المنفـى مكانـا غير أليـف في حياتـه وشـعره ، لكنـه حـاول أنْ يعـوض ذلـك بـالحلم المكـاني أي أنـه يحلـم وهـو في منفـاه بـالعودة للـوطن الأم والإقامـة في أرضـه ، بمعنى أنَّ الـوطن أصـبح في شـعره مكانـا واقعيـا ذا امتـدادات متخيلـة لا تقـف عنـد الحـدود الجغرافيـة للمكـان ، ولا تكـاد قصـيدة مكانيـة مـن شـعره تخلـو مـن الحـديث عـن المكـان الأليـف مثـل الـوطن أو المدينـة " السـماوة " ، وهـو المكـان المتخيـل فـي الوقـت عينـه فالسـماوي حـين يتحـدث عـن وطنـه وهـو في منفـاه ، هـو في الحقيقة يتكلم عن مكان متخيل أو المكان الحلم .

إنَّ المكـان الـواقعي ـ كالمنفى مـثلا ـــ يتواشـج مـع المكـان المتخيـل أو المكـان الحلـم كـالوطن ، حيـث نلمـس في قصـائده حضـورا للمكـان الـوطن ، الـذي يشـكل ثنائيـة لا بـد منهـا بـين المكان : (المنفى ، والحلم) ، ومن ذلك قوله (43)

في أسواق " أديليد "
وجدَ أصدقائي الطيبون
كلَّ مستلزمات مجلسِ العزاء
قماشٌ أسودُ ، آياتٌ قرآنية
قهوةٌ عربيةٌ ، دِلالٌ وفناجين
بخورٌ وماءُ الورد
باستثناء شيء واحد
كأسٍ من الدموعِ ولو بالإيجار
أُعيدُ بـه الرطوبةَ إلى طين عينيَّ
المُوْشكتيْن على الجفاف

(أيـليد) هـذه ، هي المدينـة التي كـان يسـكن فيهـا الشـاعر في منفـاه في اسـتراليا ، والقصـيدة تشـير إلى مراسـيم مجلـس العـزاء الـذي أقامـه الشـاعر مـع أصـدقائه هنـاك في المنفـى علـى روح والدتـه التـي توفيـت في الـوطن ولـم يسـتطع الحضـور لأنـه مطـارد. وفي هـذه القصـيدة اسـتطاع الشـاعر مـن خـلال استحضـار المكـان العراقي في المنفـى المناسـب للعـزاء والحـزن متمثلـة بمظـاهر: بـتلاوة القـرآن الكـريم واللبـاس الأسـود والقهـوة العربيـة التـي حـددها بالدلـة والفنجـان ، فهي ليسـت مثـل (الكـوفي الغربيـة) ، غيـر أنَّ هـذا الاستحضـار يظـل ناقصـا لا يكشـف عـن حـرارة المكـان العراقي ، وذلـك لأنَّ المجلـس العزائي يفتقـد للـدموع ، فهـو مجـرد مجـاملات بـاردة لا قيمـة لهـا . ويبـدو واضـحا أنَّ لا شـيء يعـوض الشـاعر عـن موطنـه الأم .وهنـا يلتقـي المكـان الـواقعي (المنفـى) مـع المكـان المتخيـل (الحلـم) وإن لـم الشـاعر قـد أشـار إليـه صـراحة بـل مـن خـلال بعـض مستلزماته .

DOI:10.18018/URUK/019-12/1745-1760

وفي قصيدته (جازان) يشير الشاعر تعلقه بموطنه منذ الشباب فهو لا يستطيع أنْ مكانا آخر بديلا عنه على الرغم من مغريات الوطن البديل (بلاد الغرب) ، يقول السماوي (44) :

جازان قد عقلَ الهوى شفةَ الفتى
لا تعذليني لو فضحتُ صبابتي
أيحبُ غيرَ الفاضلات فضيلُ
أنا ما نحلتُ لأنَّ صحني مُعسِرٌ
لكنَّ صحنَ الرافدين نحيلُ
لا تلمسي جازانُ نبضي
مِن قبل يوم ولادتي مقتولُ
صُبي على رملي مياهَك .. رُبما
سيُزينُ صحراء الشريدِ نخيلُ

المكان / الحلم المستباح :

بعض الأماكن عند السماوي تشكل (حلما مستباحا) لا يمكن الاستغناء عنه ، فهو الفتى المشرد في بلاد الغربة يحلم بوطن خال من الحروب والدمار والفقر. غير أن الوطن لا يستمع نداء ابنه المشرد، فأضحى مذبوحا بسياط جلاديه ، مقتولا بطغيان حكامه الذين يزعمون أنهم أولياؤه . وبذلك صار وطنه حلما ليس في متناول يد الشاعر لأنه ليس مرحبا به في وطن يقوده الطغاة والفاسدون حتى صارت تلك العلاقة المقدسة التي تربط الشاعر بالمكان سببا في إضفاء المرارة والألم في نفسه بسبب أولئك الطغاة والجلادين والمحتلين على حد سواء . ومن هنا صار الوطن مكانا مستباحا .

يقول السماوي (45) : **كم لئيمٍ يدَّعي شرفا**
جهرا وسرا يطعنُ النُجُبا
ومناضلٍ رخصت رسالتُه
إنْ لم يعقَ الأرضَ والنَّسبا
وفيالق سارتْ كتائبُها
خلف الأشاوس تحصد الزُّغُبا
فاسألْ حلبجةَ عن شهامتهم
وطفولةَ الأهوار والقصبا

من المنفى يخاطب الشاعر وطنه الذي صار ضحية لمن يدعي الشرف والأخلاق والحرص على أبنائه وهو في حقيقته يجهز الفيالق ليقتل أبناء جلدته فاستطاع الوطن بوصفه مكانا مستباحا أن يحرك مكامن شعور وعواطف الشاعر فيتساءل متوجعا لكثرة أدعياء الوطن والوطنية في بلده المستباح. ولا فرق عنده بين الغزاة المحتلين وبين الطغاة من حكام الوطن في اهدار كرامة المكان المقدس واستباحت انسانيته . ويعلق الوطن المستباح في ذاكرة الشاعر ووجدانه ، ولا يكاد يفارقه لذا يقول السماوي (46) :

اخرجوا من وطني ، هذه الأرض التي نعشقُ
لا تنبتُ وردَ الياسمينْ للغزاة الطامعينْ
والفراتُ الفحلُ لا ينجبُ زيتوناً وتينْ
في ظلالِ المارقينْ .
فاخرجوا مِن وطني المذبوحِ شعبا وبساتينْ
وأنهارا ..... وطينْ

المكان / الوطن ، لا يستجيب لنوايا الغزاة الذين حاولوا استباحتهم وذلك لأنَّ قوانين الطبيعة تتوقف في وجود المحتلين ؛ فلا ياسمين ينبت ، ولا تين ولا زيتون لأن الفرات لم يعد يتقبل هؤلاء المحتلين المارقين ،ومن هنا أضحى المكان فاعلا في تحريك مكان الشعور عن السماوي ، وهو شعور يعبر عن مرارة وألم ، فضلا عن التمرد والثورة على جنود الاحتلال . وبذلك صار الوطن لصيقا بالشاعر لا يمكن الفصل بينهما بأي حال من الأحوال .

يتلاشى المكان بوصفه (حلما مستباحا)عندما ينعى الشاعر وطنه حيا فيلقي عليه نظرة الوداع ، بعد أن

DOI:10.18018/URUK/019-12/1745-1760

دفنـه الطـائفيون في مقبـرتهم ، وضـاعت أحـلام الشـاعر الـذي كان يحلم بـوطن يعـيش فيـه مـا تبقى مـن حياتـه التي قضـى أغلبهـا في بـلاد التغـرب ، وفي تلـك المعانـاة يقـول الشاعر (47) : **أُلـقي النظرةَ الأخيرة عليه**

قبل دفنه في مقبرة الطائفية

دخلتُـه ، وأنا منصبُ القامةِ مثل علامة التعجب

تجولتُ فيه ، وأنا منحنيُ الظَّهر مثل علامة الاستفهام

فغادرتُه ، وأنا ضئيلٌ مثل علامة الفارزة

خشيةَ أنْ أنتهي مجرد نقطة في كتابِ مقبرة

ممسوح السطور

....

دخلتُه وأنا تابوت

وغادرتُه وأنا مقبرة

لقـد اسـهم المكـان هنـا في هـذه القصـيدة في ضـياع الشـاعر ونهايتـه في معتـرك ضـياع المكـان نفسـه ، وألهـب المكـان شـعوره فاسـتطاع أن يجعـل فاعليـة المكـان ممكنـة في توجيـه الـنص وبنائـه بنـاء أمكنـه أنْ يـؤثر في المتلقـي ويجعلـه يتفاعـل مـع الشـاعر والـوطن في آن واحـد ، الشـاعر المفجـوع بوطنـه الـذي ذبحـه الطـائفيون وجعلـوا منـه أوطانـا متعـددة لا وطنـا واحـدا . ونلاحـظ أثـر تلاشـي المكـان الحلـم حـين يتلاشـي الشـاعر نفسـه ، فالشـاعر يفـقد حياتـه تـدريجيا ، فقـد بـدأ حياتـه قويـا شـامخا يشـبه علامـة التعجـب ، ثـم انكسـر بفعـل مـا يعـاني وطنـه فصـار مـثقلا بـالهموم مثـل علامـة الاسـتفهام ، ولـم يتبـق منـه ـ جزعـا بمـا أصـاب وطنـه ـ شـيئا فتحـول جسـده إلى فـارزة .وهـذا التـدرج في بنـاء الصـور المأسـاوية للشـاعر، إنَّمـا يـدل على قـدرة الشـاعر في اسـتلهام معانـاة المكـان بوصـفه وطنـا كـان الشـاعر يحلـم فيـه طـوال حياتـه ليكـون مثـل بـاقي الأوطـان يـنعم بالسـلام والسـكينة .إنَّ اسـتعمال الشـاعر علامـات التـرقيم كعلامـة التعجـب والاسـتفهام وعلامـة الفـارزة والنقطـة في بنـاء الـنص قـد جـاء بهـا للدلالـة على تعقيـد الواقـع العراقـي الـذي عبـث فيـه الحكـام والمفسـدون والمحتلـون التي ختمهـا بقولـه : (دخلتـه وأنـا تـابوت وغادرتـه وأنـا مقبـرة) ، ممَّـا يشـير إلى تحـول لغـوي مـدهش يكشـف عمق المأساة التي ألمت بالعراق .

إنَّ اسـتعمال مثـل هـذه التشـبيهات قـد جـاء للتعبيـر عـن معانـاة الشـاعر تجـاه الـوطن / المكـان الأمـر الـذي جعـل الواقـع سـلبيا وذلـك مـن خـلال صـور تشـبيهية غير مألوفـة ، وهـذه وظيفـة الشـعر التـي تكمـن في اسـتنهاض بـذرة الشـعرية مـن قبـل الشـعراء ، ولا يقـوى السـماوي على مواجهـة الأمكنـة البديلـة لأنهـا في الحقيقـة تسـبب لـه الألـم والحـزن ، فهـو لا يجـد بـديلا يرتـاح فيـه عـن المكـان الأصـل . وعلى الـرغم مـن تنـازع المكـانين : المنفى والـوطن الـذي صـار حلمـا كمـا أسـلفنا يظـل الشـاعر متمسـكا بالمكـان الأصـل (الـوطن) ، فكـل الأمكنـة صـارت طارئـة بالنسـبة لـه ، ففـي الـوطن الأم كـان بيـت الطفولـة وذكريـات الشـباب بمعنى أنـه قـد ترسـب في صـميم اللاشـعور عنـده بوصـفه المكـان المفقـود أو الحلـم المفقـود ، وفي ذلـك التصـارع بـين المكـانين المكـان الـواقعي والمكـان المفقـود (الحلـم) يصـف الشـاعر معاناته قائلا(48) :

لا تعجبي إنْ هرمتْ نخلةُ عمري

قبل أنْ يبتدئ الميلادْ

لا تعجبي .....

فالجذر في "بغدادْ"

يرضع وحلَ الرُّعب

والغصون في "أدلاد"

وها أنا بينكما ، شراع سندباد .

يبحر بين الموت والميلادْ

DOI:10.18018/URUK/019-12/1745-1760

في القصيدة يتحدث الشاعر عن امتداد الأمكنة في أعماقه فالجذور في بغداد ليمتد إلى (أدلاد) ، وكأنما كُتب عليه أنْ سندباد جديد بالترحال والسفر. إذ يحلم الشاعر بتلاشي المسافات بين المنفى وبغداد ، فما بينهما موت وميلاد ، موت في أدلاد وميلاد في بغداد . وبذلك يشكل العراق بعدا جماليا في ذاكرة السماوي بوصفه (الفردوس المفقود) ـــــ لا سيما إذا شكل الوطن مساحة جغرافية تنشطر بين مكانين ، هما المكان البديل أو المنفى المؤقت (جدة) و بين المكان الحلم ، الوطن المستباح (العراق) ، وفي ذلك يقول السماوي (49) : مـنْ

ينقذ الغريبَ من غربته ؟

ومنْ يعيد للبصير الضوءَ ؟

ومنْ يستل من خاصرتي خناجرَ الفراق ؟

إذا جسدي يسكنُ في " جدة " ، يا حبيبتي

لكنَّ روحي تسكنُ العراقْ

يبدوأنَّ احساس السماوي بالمكان يشكل علاقة تواصلية لا انقطاع فيها يمثل ذوبانا عاطفيا ونفسيا ليقدم رؤيا أشمل وأعم ، وبذلك يكشف الشاعر عن واقعه النفسي المتأزم بسب وجوده خارج أسوار الوطن ، وذلك من خلال هذا الاستفهام الذي يظل مفتوحا من دون إجابات ، فلا أحد آنذاك يستطيع أن ينقذ الشاعر من غربته ، ولا يعيد لبصره الضوء ، ولا يمكن أن يخلصه من ألم الفراق. فهو لم يستطع أنْ يأخذ كفايته من وطنه .

إنَّ توظيف للمكان عند السماوي توظيفا شعريا يعكس شعوره تجاهه ، لا سيما حين يتشظى إلى أمكنة عديدة لكل منها دلالته النفسية عند الشاعر التي تمتد على مساحة الوطن ، وتتوحد مع جميع مدنه ، وعلى الرغم من ذلك التشظي الذي طال الوطن فإنه يظل حاضرا مرموزا بالتخيل .فتعدد الأمكنة عنده إنما يشير إلى تاريخ حياة الشاعر ومراحلها من الطفولة إلى الشباب ثم الكهولة ، وما يصاحب تلك المراحل العمرية من محطات فرح أو حزن أو اغتراب .

إنَّ تعدد الأمكنة في شعر السماوي يظل متوحدا بالوطن الكبير العراق الذي يتسع لكل شيء ، فالتمزق الذي حل في جسد الوطن لا يكون مانعا من توحده واشتماله على الجميع لأن الجرح واحد من الشمال إلى إلى الجنوب .

يقول السماوي (50) :

يا جرحنا الممتد من أربيل والبصرة

حتى شفتيْ ميسانَ

السيفُ من بغداد

والقبضةُ من تكريت والجثة في ذي قار

هربت من ذاكرة النخل

فما للنخل لا يغادر القلب ، ولا نافذة الأفكار؟

فكل هذه الأمكنة التي ذكرها الشاعر له دلالته الاجتماعية والسياسية ؛ فأربيل والبصرة حاضنتان اجتماعيتان تختلفان عن بعضهما في التركيبة الاجتماعية غير أنهما تتفقان في كونها ضحية السلطة الحاكمة ، أما بغداد فهي ترمز لمكان السلطة ، وأما تكريت ففيها ميلاد الحكام . القبضة في تكريت والضحايا في ذي قار. وبذلك تمكن الشاعر من استلهام المكان ليعبر من خلاله عن الرؤية الفكرية التي كان يحملها إزاء الواقع السياسي القائم آنذاك.

خاتمة البحث :

في الصفحات آنفة الذكر اوصلت للنتائج الآتية :

1ـ يشكل المكان مساحة واسعة في شعر يحيى السماوي مما أسهم في توجيه النص الشعري عنده على مستوى البناء والدلالة .

DOI:10.18018/URUK/019-12/1745-1760

2 ـــ تنمو عتبة المكان في شعر السماوي بشكل موازٍ لمراحل حياته ، ففي شعره ما يؤكد تطور ذلك ، فهناك مكان الطفولة ثم مكان الشباب وصولا إلى مكان الكبر .

3 ـ يرتبط المكان في شعر بمعاناة الشاعر نفسه على مستوى شخصي خاص به أو على مستوى الوطن .

4 ـــ تنوع الأمكنة في شعره فمنها المكان الأليف والمكان غير الأليف (المنفى) ، ثم المكان الحلم الذي ظل يحلم ه طوال سنوات الاغتراب .

5 ـــ صار المكان في شعر السماوي فاعلا في تحريك النص الشعري على مستوى الفكرة أو الدلالة .

هوامش البحث :

× المكان ، يمثل المكان هوية الإنسان، وبه يرتبط بالماضي والحاضر والمستقبل ، فلا أنسان من غير مكان ولا مكان من غير قاطنيه ، فهما شيئان متلازمان لا يفترق أحدهما عن الآخر ، وأحدهما يمثل بعدا وجوديا ودلاليا للآخر ، وإنْ افترقا يظل الآخر مرتبطا بالأول . ولم يغفل اللغويون والفلاسفة والباحثون البحث عن معنى المكان وأهميته للإنسان فضلا عن أثره الدلالي ، حتى صارت له دلالات متنوعة منها ما هو : لغوي أو فلسفي ، أو شعري أو روائي أو قصصي أو سياسي ، وغير ذلك . ومثلما للمكان أثر في توجيه المعنى الشعري ، فقد استعمله القران الكريم في توجيه المعنى القرآني ، إذ وردت آيات قرآنية تشير صراحة إلى المكان وأهميته . فعلى سبيل المثال ، قوله تعالى : " واذكر في الكتاب مريم إذ انتبذتْ من أهلها مكانا شرقيا "سورة مريم / 16آية ، وقوله تعالى " واستمع يوم ينادي المنادي من مكان قريب " سورة ق / آية41 ، وفي القصص القرآني يحتل المكان أهمية خاصة ، لا سيما في توجيه الدلالة القرآنية ، فمثلا في سورة يوسف (عليه السلام) يأخذ المكان مساحة واسعة في السورة المباركة ، إذ يتحرك المكان بشكل فني ويسهم في التعبير القرآني ، ويتدرج في ذلك منذ طفولة يوسف (عليه السلام) ثم تدرج عمره الشريف . وفي معنى المكان وأهميته فصَّل الباحثون القول، وفي ذلك ما يُغنينا عن الإعادة .

ينظر. مثلا ـ تفاصيل ذلك في : ـ جماليات المكان في الشعر العراقي الحديث ـ سعدي يوسف انموذجا ــ رسالة ماجستير مرتضى حسين علي حسن ، جامعة فيلا دلفيا، 2016 .

ـ المكان في شعر محمود درويش ، بحث ، هيام عبد الكاظم موسى ، مجلة كلية التربية ، جامعة واسط ، ع / 23 .

ـ إشكالية المكان في النص الأدبي ، ياسين النصير، دار الشؤون الثقافية العامة ، بغداد ، ط1 ، 1986 ،

ـ جماليات المكان ، جاستون باشلار، ترجمة غالب هلسا ، وزارة الثقافة العراقية ، بغداد ، 1980 .

ـ شعرية المكان في الشعر الجاهلي ـ المعلقات العشر انموذجا ـ أطروحة دكتوراه ، جامعة سيدي بلعباس ، الجزائر، كلية الآداب واللغات والفنون 2016 .

1 ـ ينظر:علامات النص الشعري عند يحي السماوي ، صلاح ابراهيم ، : 29 .

2 ـ ينظر: الشعر العراقي في المنفى ـ السماوي انموذجا ـ د. فاطمة القرني :32 ، وينظر المصدر السابق : 29 .

3 ـ ينظر: المصدر نفسه :39 .

4 ـ ينظر:علامات النص الشعري (مصدر سابق) :31 .

5 ـ ينظر: المصدر نفسه : 31 ـ 34 .

6 ـ ينظر: المصدر نفسه : 30 .

7 ـ ينظر:العشق والإغتراب في شعر يحي السماوي (قليلك لا كثيرهن) ، محمد جاهين بدوي : 12 ـ 13 .

8 ـ ينظر:المكان في شعر محمود درويش (بحث) : 39 .

9 ـ ينظر: فاعلية المكان في الصورة الشعرية ـ سيفيات المتنبي انموذجا ـ (بحث) :

10 ـ ينظر: النزوع نحو المكان (بحث) : 7 وينظر: موت المكان في الشعر الحديث . السياب انموذجا ـ (بحث)

11. ينظر:فلسفة المكان في الشعر العربي القديم ، د. حبيب مؤنسي : 16

12. ينظر: جماليات المكان ، جاستون باشلار: 6 .

13 . ينظر:اشكالية المكان في النص الأدبي ، ياسين النصير: 16 .

14 . ينظر: المصدر نفسه : 16 .

15 . ينظر: بناء الرواية ، سيزا قاسم : 74 .

16 . ينظر: فلسفة المكان في الشعر العربي ـ قراءة موضوعاتية ـ د. حبيب مؤنسي : 135 .

17 ــ ينظر: إشكالية المكان في النص الأدبي ـ دراسة نقدية ــ ، ياسين النصير: 135 .

18 ــ ينظر: الأسس النفسية للتجريب الشعري ، د. ريكان ابراهيم ، (بحث) : 46 .

19 . البكاء على كتف الوطن ، يحي السماوي : 34 .

20 ـ ينظر: المكان وتحولات الهوية عند محمود درويش (رسالة) ، ليانة عبد الرحيم : 14 .

21 . ينظر: جماليات المكان ، جاستون باشلار: 39 .

22 ــ ينظر:العشق والإغتراب في شعر يحي السماوي ، محمد جاهين بدوي : 117 .

23 . شاهد على قبر من رخام الكلمات ، يحي السماوي :106 .

24 . البكاء على كتف الوطن ، يحي السماوي : 34.

DOI:10.18018/URUK/019-12/1745-1760

25 ــ ينظر أوراق الرماد ـ دراسة نقدية في ديوان قليلك لا كثيرهن ـ د. خضير درويش :12 .

26 ـ ينظر:جماليات المكان في الشعر العراقي الحديث ــ سعدي يوسف انموذجا ـ رسالة : 25 .

27 . ينظر: فلسفة المكان في الشعر العربي ـ دراسة موضوعاتية ، د. حبيبي مؤنسي : 15 ـ 16 .

28 ـ ينظر: أساليب الشعرية المعاصرة، د. صلاح فضل : 20 .

29 ـ لماذا تأخرتي دهرا ، يحيى السماوي : 61 .

30 . ينظر:المكان والرؤية الإبداعية (بحث) ، نادية غازي العزاوي : 20 .

31 ـ ينظر: تجربة العشق والإغتراب في شعر يحيى السماوي ، (بحث) ، محمد جاهين : 14 .

32 ـ ينظر: أوراق الرماد : 26 .

33 ـ ينظر: جماليات المكان في الشعر الحديث ـ سعدي يوسف انموذجا ـ (رسالة) : 12 . وينظر: جماليات المكان في الشعر العربي ـ دراسة في فلسفة الجمال في الوعي الشعري الجاهلي ـ هلال الجهاد : 99 .

34 ـ ينظر: إشكالية المكان في النص الأدبي ، ياسين النصير: 395 .

35 ـ نقوش على جذع نخلة ، يحيى السماوي : 68 ـ 69 .

36 ـ ينظر: الفضاء الروائي عند جبرا ابراهيم جبرا ، د. ابراهيم جنداري : 237.

37. نقوش على جذع نخلة : 67 .

38 ـ الأفق نافذتي ، يحيى السماوي : 181 .

39 ـ ينظر: المكان في شعر محمود درويش (بحث) : 73.

40 ـ البكاء على كتف الوطن ، يحيى السماوي : 5 .

41 ـ ينظر: نفسه : 36 .

42 . ينظر:نفسه : 171 .

43 ـ شاهدة قبر من رخام الكلمات ، يحيى السماوي : 44 .

44 ـ هذه خيمتي ، فأين الوطن ، يحيى السماوي : 15 ـ 20 .

45 ـ شاهدة قبر من رخام الكلمات : 44 ـ 45 .

46. نقوش في جذع نخلة : 7 .

47 . شاهدة قبر من رخام الكلمات : 78 ، 79 ، 105 .

48 ـ قليلك لا كثيرهن ، يحيى السماوي : 23 ـ 24 .

49 ـ عيناك لي وطن ومنفى ، يحيى السماوي : 137 ـ 138 .

50 ـ هذه خيمتي فأين الوطن : 109 ـ 110 .

مصادر البحث :

- القرآن الكريم .
- أساليب الشعرية المعاصرة ، د. صلاح فضل، دار الأديب ، بيروت ، لبنان ، ط1 ، 1995 .
- اشكالية المكان في النص الأدبي ، ياسين النصير ، دار الشؤون الثقافية ، بغداد ، ط1 ، بغداد 1986 .
- أوراق الرماد ــ دراسة نقدية في ديوان قليلك لا كثيرهن للشاعر يحيى السماوي ، د. خضير درويش ، دار تموز للطباعة والنشر ، ط1 ، دمشق 2018 .
- بناء الرواية ، سيزا أحمد قاسم ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ، ط1 ، 1984 .
- جماليات الشعر العربي ــ دراسة في فلسفة الوعي الشعري الجاهلي ــ هلال الجهاد ، منشورات مركز دراسات الوحدة العربية ، بيروت ، لبنان ، د.ت .
- جماليات المكان ، جاستون باشلار ، ترجمة غالب هلسا ، منشورات دار الجاحظ ، وزارة الثقافة العراقية ، بغداد ، 1980 .
- الشعر العراقي في المنفى ، السماوي انموذجا ــ د. فاطمة القرني ، ط1 ، السعودية ، 2008.
- العشق والاغتراب في شعر يحيى السماوي ، د. محمد جاهين بدوي ، دار الينابيع ، سورية دمشق ، ط1 ، 2010 . 21
- علامات النص الشعري عند يحيى السماوي ، صلاح راهي ابراهيم ، دار تموز للطباعة والنشر ، دمشق ، 2017 22
- الفضاء الروائي عند جبرا ابراهيم جبرا ، د. ابراهيم جنداري ،
- فلسفة المكان في الشعر العربي ـ قراءة موضوعاتية ـ د. حبيب مؤنسي ، منشورات اتحاد الكتاب العرب ، دمشق ، ط1 ، 2005 .

الأبحاث والرسائل والأطاريح :

- تجربة العشق والاغتراب في شعر يحيى السماوي ــ قراءة في قصيدة تماهي ــ محمد جاهين بدوي ، موقع الناقد العراقي الألكتروني ، لسنة 2000 م .

DOI:10.18018/URUK/019-12/1745-1760

- جماليـات المكـان في الشـعر العراقي الحـديث ــ سـعدي يوسـف انموذجـا ـــ رسـالة ماجسـتير ، مرتضى حسـين علي ، رسالة ماجستير ، جامعة فيلا دلفيا ، 2016 م .
- فاعليـة المكـان في الصـورة الشـعرية ــ سـيفيات المتنبي انموذجـا ــ . علـي متعـب جاسـم ، منى شـفيق ، مجلـة جامعة ديالى ، العدد 40 ، السنة 2001 م .
- المكـان في شـعر محمـود درويـش ، هيـام عبـد الكـاظم ابـراهيم ، مجلـة جامعـة واسـط ، العـدد 23 ، السـنة 2015م
- المكـان وتحـولات الهويـة عنـد محمـود درويـش، رسـالة ماجسـتير ، ليانـة عبـد الـرحيم ، جامعـة بيرزيـت ، فلسـطين ، 2012 .
- المكـان و الرؤيـة الإبداعيـة ، د. ناديـة أحمـد العـزاوي ، آفاق عربية ، العدد 3 .4 . بغداد 1989 .
- مـوت المكـان في الشـعر الحـديث ـ شـعر السـياب انموذجـا ـ عيسـى سـلمان المعمـوري ، مجلـة كليـة الدراسـات الرآنيـة ، الحلة ، جامعة بابل 2011 م .

دواوين الشاعر يحي السماوي :

- الأفق نافذتي ، ط1 ، استراليا ، 2003 م .
- البكـاء علـى كتـف الـوطن ، دار التكـوين للتـأليف والترجمة والنشر ، دمشق ، 2008 .
- شـاهدة قبـر مـن رخـام الكلمـات (نصـوص نثريـة) ، دار التكوين للترجمة والنشر ، ط1 ، دمشق ، 2010 .
- عينـاك لـي وطـن ومنفـى ، دار الظـاهري ، جـدة ،السعودية ، 1415 هـ .
- قليلـك ... لا كثيـرهن ، منشـورات ، جـدة ن السـعودية ، ط2 ، 2007 .
- لمـاذا تـأخرتي دهـرا، دار الينـابيع ، سـورية ، ط1 ، 2010 .
- نقـوش على جـذع نخلـة ،دار تمـوز ، دمشـق ، سـورية ، ط1 ،2006 ،

هذه خيمتي فأين الوطن ، ط1 ، استراليا ، 1997 .

Sammary :

The idea of the research :is taking about the relationship between the iraqi poet yahya AL Samamwi and effect of the place and there is agood conection btween the poetry and the place .

We can not separate between then because it is a talkative relationship.

There is no Arabic poem before Islam has no the name of the place because the place is symbole for the nation .